السّراج الوهّاج من إضاءات دروس وعِبَر الإسراء والمعراج

2022-02-25

الحمدُ للهِ الكريم الوهَّاب، الجَواد البَرّ التوَّاب، يُعْطِي مَنْ يشاءُ مِنْ فضْلِهِ وإحسانِهِ، ويُفيضُ علَى مَنْ أَحَبَّ مِنْ خَيْراتِهِ وَامْتنانِهِ، لَطَفَ بعبدِهِ ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم فأنْعَمَ عليهِ بنِعْمَةِ الإسراءِ وَالـمِعْراجِ، وهَدَاهُ لأقْوَمِ السُّبُلِ وأدَلِّ الحِجاجِ، نحمده تعالى ونشكره أن بسط لنا بساط المنَّة، بهادينا إلى طريق الجنّة، الذي كان لنا من الآفات والعاهات في الدارَين خير جُنَّة. صاحب الإسراء والمعراج، مَن جعله الله تعالى أبهى سراج، الهادي إلى أقوم منهاج. الذي يطيب للارواح به معنى الامتزاج، عندما تنتهج في نهجه أكرمَ انتهاج، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، العَلِيّ الأَعْلَى، ((الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى))، وَعرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ العُلاَ، لِيُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ الكُبْرَى، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلِيلُهُ، سيّدي يا رسول الله :

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إلى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَبِتَّ تَرْقى إلى أنْ نِلْتَ مَنزِلَةً من قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلمْ تُرَم
وقَدَّمَتْكَ جَميع الأنْبَياءِ بِهَا وَالرُّسل تَقدِيمِ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
حَتَّى إذَا لَمْ تَدَعْ شَأواً لِمُسْتَبِقٍ مِنَ الدُّنُوّ ولا مَرْقَى لِمُسْتَنِمِ
خَفَضْتَ كلَّ مَقامٍ بالإضافة إذْ نُودِيتَ بالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ الْعَلم
كَيْما تَفُوزَ بِوَصْلٍ أيِّ مُسْتَتِرِ عَنِ العُيُونِ وسِرٍّ أيِّ مُكْتَتَمِ
فَحُزْتَ كلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرِكٍ وجُزْتَ كلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدحم
وجَلَّ مِقْدَارُ مَا ولّيتَ مِنْ رُتَبٍ وعَزَّ إدْرَاكُ ما أوليتَ مِنْ نِعَمِ
بُشْرَي لَنا مَعْشَرَ الإسْلامِ إنَّ لَنا مِنَ العِنايَةِ رُكْناً غَيْرَ مُنْهَدِمِ
لما دعا اللهُ داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنّا أكرم الأممِ

إخواني: مَن أراد منكم تيسير أمره وتفريج كربه. فليكثر من الصلاة على هذا النبيّ الكريم من صميم قلبه. وارفعوا أصواتكم بها محبّة فيه. فإنّها ترضي الله وترضيه. اللهم صلِّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. صاحب الجاه العالي. والقدر العظيم. وعلى آله معالم الهداية والنّهج القويم. وصحابته ذوي الهدي السّويّ والصّراط المستقيم. صلاة تطهّرنا بها من كلّ فعل قبيح ووصْف ذميم. وتجيرنا بها من النّكال والخزي والعذاب الأليم. وتكرمنا بها بالنّظر إلى وجهك الكريم. في دار الكرامة وجنّة النّعيم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين.**أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. حَادِثَةٌ نَتَفَيَّأُ ظِلاَلَهَا هَذِهِ الأَيَّامَ، وَيَحتَفِي بِهَا المُسْلِمُونَ عَامًا بَعْدَ عَامٍ، يَستَلْهِمُونَ مِنْها الدُّرُوسَ وَالعِبَرَ، وَتُذَكِّرُهُمْ بِسِيرَةِ خَيْرِ البَشَرِ صلى الله عليه وسلم، حَادِثَةٌ جَعَلَهَا اللهُ لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم هَدِيَّةً، وَلِلْمُؤْمِنينَ بِهِ امتِحَانًا وَتَمْحِيصًا، إِنَّهَا ذِكْرَى حَادِثَةِ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ، تِلْكَ الذِّكْرَى التِي لاَ تَنْقَضِي عِبَرُهَا، وَلاَ تَفْنَى عِظَاتُهَا، افْتَتَحَ اللهُ بِهَا سُورَةً مِنْ سُوَرِ كِتَابِهِ الكَرِيمِ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:((سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ))، فَابْتَدَأَتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ بِتَنْزِيهِ المَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ وَبَيَانِ عَظَمَتِهِ، لِتَدُلَّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الحَدَثِ وَجَلاَلَةِ المَوقِفِ، وَوَصَفَتِ المُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم بِصِفَةِ العُبُودِيَّةِ للهِ، لِتُؤَكِّدَ أَنَّ رِعَايَةَ اللهِ لَهُ شَامِلَةٌ، وَعِنَايَتَهُ سُبْحَانَهُ لَهُ مُصَاحِبَةٌ، ثُمَّ بَيَّنَتِ السَّبَبَ الرَّئِيسَ مِنْ وُقُوعِ هَذِهِ الحَادِثَةِ فَقَالَ جَلَّ وَعَلاَ: ((لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا))، أيّها المسلمون. لَقَدْ جَمَعَتْ هِذِهِ الحَادِثَةُ دُرُوسًا إِيمَانِيَّةً وَفِكْرِيَّةً وَتَرْبَوِيَّةً وَاجتِمَاعِيَّةً، يَستَضِيءُ بِهَا المُسْلِمُ فِكْرًا وَعَمَلاً، إِنَّهَا تُؤَكِّدُ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ مُطْلَقَةٌ، وَأَنَّ اللهَ لاَ يُعْجِزُهُ شَيءٌ، وَمَا نَوَامِيسُ الكَوْنِ إِلاَّ مِنْ صُنْعِهِ وَتَدْبِيرِهِ، تَمْضِي كَمَا أَرَادَ، وَيَنْقُضُهَا مَتَى شَاءَ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ قَرَّرَها القُرآنُ الكَرِيمُ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))، إِنَّ العَقْلَ البَشَرِيَّ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتَنِعَ بِهَذِهِ الحَادِثَةِ، وَقَدْ تَعَوَّدَ خِلاَفَهَا فِي نَوَامِيسِ الكَوْنِ، فَكَيْفَ يَسِيرُ رَجُلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ وَيُعْرَجُ بِهِ إِلَى أَعَالِي السَّمَاوَاتِ وَيَرْجِعُ فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَكُونُ الخَبَرُ مِنَ اللهِ، وَالأَمْرُ أَمْرَهُ، فَإِنَّ المُؤْمِنَ يَقُولُ كَمَا قَالَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:((أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))، إِنَّهَا دَرْسٌ مِنْ دُرُوسِ الإِيمَانِ بِالغَيْبِ، ذَلِكَ الرُّكْنِ الذِي هُوَ مِنْ أَهَمِّ مُقْتَضَياتِ الإِيمَانِ، فَقَدِ افْتَتَحَ اللهُ بِهِ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ، فِي أَوَّلِ سُورَةٍ بَعْدَ فَاتِحَةِ الكِتَابِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:((آلم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ))، وَلِهَذا فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ العَظِيمَةُ امتِحَانًا وَاختِبَارًا لِذَوِي الإِيمَانِ، هَلْ يُصَدِّقُونَ فَوْرًا أَم يَتَلَكَّؤُونَ وَيَتَرَدَّدُونَ؟ ((أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ))، وَكَمَا أَنَّ هَذِهِ الوَاقِعَةَ تَزِيدُ المُؤْمِنِينَ مَعْرِفَةً بِاللهِ، فَهِيَ تَزِيدُهُمْ مَعْرِفَةً بِنَبِيِّهِمْ صلى الله عليه وسلم، وَتَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ عِنْدَهُمْ، فَقَدْ أَكْرَمَهُ اللهُ فِيهَا أَيَّمَا إِكْرَامٍ، فَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ العُلاَ، وَأَمَّ إِخْوَانَهُ الأَنْبِيَاءَ، وَوَصَلَ حَيْثُ لَمْ يَصِلْ مَخْلُوقٌ، فَأَكَّدَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ أَنَّ قَدْرَهُ عَظِيمٌ، وَمَنْزِلَتَهُ سَامِيَةٌ، وَهَذَا تَذْكِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَدَرْسٌ لِلْمُنَاوِئِينَ وَالجَاحِدِينَ، لِيَزْدَادَ الذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا، وَيَعْلَمَ المُكَذِّبُونَ أَنَّهُمْ يُعَادُونَ عَظِيمًا، وَيُخَالِفُونَ مَنْ لَهُ المَكَانَةُ الرَّفِيعَةُ عِنْدَ اللهِ، فَلْنَعْرِفْ قَدْرَ نَبِيِّنَا الكَرِيمِ صلى الله عليه وسلم، وَلْنُبَيِّنْ لِلْعَالَمِ أَجْمَعَ أَنَّهُ عَظِيمٌ. أيّها المسلمون. إِذَا كَانَتْ رِحْلَةُ الإِسْراءِ والمِعْرَاجِ إِكْرَاماً لِشَخْصِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ صلى الله عليه وسلم وتَثْبِيتاً لَهُ وهُوَ يُواجِهُ التَّحَدِّيَاتِ والصِّعَابَ، فَإِنَّ فِيهَا إِكْرَاماً لأُمَّتِهِ، ومِنْ أَبْرَزِ صُوَرِ هَذَا الإِكْرَامِ الإِلَهِيِّ لِهَذِهِ الأُمَّةِ وأَكْمَلِ نِعَمِهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْها فَرْضُ الصَّلاَةِ، فَقَدْ فُرِضَتْ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ فِي السَّمَاوَاتِ العُلاَ، وبِدُونِ وَاسِطَةِ وَحْيٍ، تَشْرِيعًا نَظَرِيًّا وَتَطْبِيقًا عَمَلِيًّا، وفِي هَذَا دَلاَلَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ الصَّلاَةِ وجَلِيلِ قَدْرِها، فَقَدْ صَلَّى الحبيب المُصْطَفَى صلى الله عليه وسلم بِإِخْوَانِهِ الأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، وَائْتَمُّوا بِهِ جَمَاعَةً وَاحِدَةً، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ مَكَانَةِ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ وَرَفِيعِ مَنْزِلَتِهَا، كَيْفَ لاَ؟ وَهِيَ عَمُودُ الدِّينِ، وَمِقْيَاسُ الإِيمَانِ، وَأَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ العَبْدُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، وَقَدْ أَوْصَانا بِهَا نَبِيُّنا صلى الله عليه وسلم فِي آخِرِ لَحَظَاتِ عُمُرِهِ، فَقَالَ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ المَوْتِ:((الصَّلاَةَ الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ))، فَهِيَ لَذَّةٌ لأَرْوَاحِ المُوَحِّدِينَ، وبُستَانٌ لِعَمَلِ العَابِدِينَ، وثَمَرَةٌ لِجُهْدِ الخَاشِعِينَ، وَمِحَكٌّ لأَحْوالِ الصَّادِقِينَ، ومِيزَانٌ لأَصنَافِ السَّالِكِينَ، وهِيَ مِنْ أَعظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وأَفْضَلِ هَدَايَاهُ التِي سَاقَها إِلَيْهِمْ، هِيَ رُوحُ قُلُوبِهِم، ولَذَّةُ نُفُوسِهِم، ورِيَاضُ جَوارِحِهِم، يُفْلِحُ مَنْ أَدَّاها كَمَا شَرَعَها العَزِيزُ الحَكِيمُ، قَالَ تَعالَى:((قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ

هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ))، وهِيَ قُرَّةُ عَيْنِ النَّبِيِّ الأَمِينِ، صلى الله عليه وسلم. ومَهْوَى قُلُوبِ المُؤمِنينَ، فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ:((جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ))، أيّها المسلمون. ولَمَّا كَانَ الإِسْرَاءُ والمِعْرَاجُ تَسلِيَةً لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وتَسْرِيةً عنه؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَرَادَ أَنْ يَعُودَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم فِي هَذِه اللَّيْلَةِ بِأَعظَمِ عِبَادَةٍ يُستَعانُ بِها عَلَى الكُرُبَاتِ، ويَستَرِيحُ المُؤمِنُ عِنْدَ أَدَائِها مِنْ جَمِيعِ الضَّوائِقِ والأَزَمَاتِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالى:((وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ))، ويَقُولُ:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ))، وكَانَ عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلى الصَّلاةِ، ونَادَى بِلالاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَائِلاً:((أَرِحْنَا بِها يَا بِلالُ))، وبَقِيَتْ هَذِهِ العِبَادَةُ مِعْرَاجَاً يَرقَى بِها النَّاسُ إِلى عَالَمِ الطُّهْرِ والصَّفَاءِ، تَزكِيَةً لِلنُّفُوسِ وبُعْداً بِها عَنِ المُنْكَرِ والفَحشَاءِ. فبِإِقَامَةِ الصَّلاَةِ تُكَفَّرُ السَّيِّئَاتُ وتُمْحَى الخَطِيئَاتُ وتُرفَعُ الدَّرَجَاتُ، وفِيهَا يَكُونُ العَبْدُ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ إِلَى اللهِ إِذَا أَقَامَها فَأَكْمَلَ شُرُوطَها وأَرْكَانَها، واستَغْرَقَ قَلْبُهُ مُرَاعَاةَ حُدُودِها وحُقُوقِها، وَكَانَّ هَمُّهُ مَصرُوفاً إِلَى إِكْمَالِها وإِتْمَامِها، قَدِ استَغْرَقَ قَلْبُهُ شَأْنَ الصَّلاَةِ وعُبُودِيَّةَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعالَى، قَالَ تَعالَى:((وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)). فَطُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَ فَضْلَهَا وَقِيمَتَها، فَغَدا لَهَا مُحَافِظًا، وَلِحُدُودِهَا وَحُقُوقِهَا مُرَاعِيًا وَحَافِظًا، أيّها المسلمون. إِنَّ بِدَايَةَ الإِسرَاءِ بِالمَسْجِدِ الحَرامِ، وانتِهَاءَهُ بِالمَسْجِدِ الأَقصَى. فِيهِ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلى أَهَمِّيَّةِ هَذيْنِ المَسْجِدَيْنِ خَاصَّةً، وأَهَمِّيَّةِ المَسَاجِدِ عَامَّةً، وَدَلِيلاً عَلَى المَكَانَةِ التِي يَتَبَوَّؤُها المَسْجِدُ فِي الإِسْلاَمِ، وَدَوْرِهِ العَمَلِيِّ وَالتَّرْبَوِيِّ وَالاجتِمَاعِيِّ، وَلِذَا كَانَتْ عِمَارَةُ المَسَاجِدِ مِنْ أَدِلَّةِ الإِيمَانِ بِاللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:((إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)). فَالمَسَاجِدُ بُيوتُ اللهِ فِي الأَرضِ ومَهْبطُ مَلائِكَةِ اللهِ المُقَرَّبِينَ، ومَثْوَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحينَ، فِيهَا يُزَكِّي المُسلِمُ بَدَنَهُ ونَفْسَهُ ورُوحَهُ، فَكَما يَزكُو بَدَنُ المُؤمِنِ لِدُخُولِ المَسْجِدِ بِالتَّطهِيرِ مِنَ الأَحدَاثِ والأَنجَاسِ والأَدرَانِ، فِي النَّفسِ والثَّوبِ والمَكانِ، فَكَذَلِكَ الأَخلاَقُ والأَرواحُ تَزكُو كُلَّمَا غَدَا المُؤمِنُ إِلى المَسْجِدِ أَو رَاحَ، وإِلى أَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الأَمَاكِنِ الطَّاهِرَةِ يُشِيرُ القُرآنُ الكَرِيمُ فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالى:((وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً)). أيّها المسلمون. لَقَدْ لاَقَى رَسُولُنَا

الكَرِيمُ صلى الله عليه وسلم صُنُوفَ العَنَاءِ، وذَاقَ مِنْ قَوْمِهِ أَنْوَاعَ البَلاَءِ، وهُوَ ثَابِتٌ فِي طَرِيقِهِ، لاَ يُرْضِيهِ مِنَ الهَدَفِ غَيْرُ تَحقِيقِهِ، عَرَفَ نُبْلَ الرِّسَالَةِ فَثَبَتَ عَلَيْهَا، وأَدْرَكَ قِيمَةَ الغَايَةِ فَسَعَى إِلَيْهَا، وحِينَ اشْتَدَّ بِهِ مِنَ النَّاسِ البَلاَءُ، وأَثْقَلَ كَاهِلَهُ فِي الأَرضِ العَنَاءُ، جَاءَتْهُ دَعْوَةُ الضِّيَافَةِ مِنَ السَّمَاءِ، بَعْدَ أَنْ صَدَرَ مِنْهُ رَقِيقُ الشَّكْوَى وخَالِصُ الإِنَابَةِ، وأَكْرَمَهُ اللهُ بِالإِجَابَةِ، يَوْمَ ضَرَعَ إِلَى اللهِ بِخَالِصِ الدُّعَاءِ قَائِلاً:((اللهُمَّ إِلَيكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَهَوانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ، أَنْتَ رَبُّ المُستَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ))، إِنَّهَا رِسَالَةٌ إِلَى كُلِّ رَاغِبٍ فِي خِدْمَةِ العَالَمِينَ، ومُسَاعَدَةِ المُحتَاجِينَ، أَنَّ مَنْ سَارَ عَلَى هَدْيِهِ صلى الله عليه وسلم لاَ يَضِيعُ مَعَ اللهِ جَزَاؤُهُ، ولاَ يَذْهَبُ سُدىً عَنَاؤُهُ، جُهْدُهُ مِنَ اللهِ مَشْكُورٌ، وهُوَ عَلَى عَنَائِهِ مُثَابٌ مَأْجُورٌ، فَضْلاً مِنَ الغَفُورِ الشَّكُورِ، فَلْيَمْضِ عَلَى طَرِيقِ الخَيْرِ بِثَبَاتِ الجِبَالِ، فَإِنَّ حَسْبَهُ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، الذِي أَلْهَمَهُ رُشْدَهُ وهَدَاهُ الدَّلِيلَ، قَالَ تَعالَى:((الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ، إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ))، وَعْدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أَنَّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْراً، وبَعْدَ الجُهْدِ ثَواباً وأَجْراً. أَيّها المسلمون. إِنَّ الذِي يَدْعُو إِلَى الخَيْرِ وَيَبْذُلُ الإِحْسَانَ، ويَخْدِمُ بَنِي الإِنْسَانِ، قَدْ يَجِدُ مَنْ يَتَنَكَّرُ لِجُهُودِهِ، ويُقَابِلُ إِحْسَانَهُ بِجُحُودِهِ، بَل رُبَّمَا يَصْطَدِمُ بِمَنْ يُحَاوِلُ إِيقَافَ نَفْعِهِ، ويَرومُ الحَيْلُولَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ بُلُوغِ هَدَفِهِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا تَسَلَّحَ بِالصَّبْرِ والثَّبَاتِ، فَإِنَّ اللهَ سَيُقَيِّضُ لَهُ مَنْ يُعِينُهُ عَلَى جُهْدِهِ، وَيُسَدِّدُ عَلَى الخَيْرِ خُطَاهُ، ويُشَارِكُهُ جُهْدَهُ ومَسْعَاهُ، يُصَبِّرُهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، ويُوَاسِيهِ عِنْدَ المَصَائِبِ، وهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ، قَالَ تَعَالَى:((وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ))، والعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى، والبَقَاءُ لِلأَنْفَعِ،

كَمَا ضَرَبَ اللهُ المَثَلَ لِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ:((أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ))، وَاللهُ لَنْ يَتَخَلَّى عَنْ فَاعِلِ الخَيْرِ، وَلَنْ يَخْذُلَ الذِي يَنْفَعُ النَّاسَ، قَالَ تَعالَى:((إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ))، وَإِنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الإِنْسَانِ أَنْ يَضِيقَ صَدْرُهُ بِتَكْذِيبِ المُكَذِّبِينَ، ونُكْرَانِ الجَاحِدِينَ، فَيتأَذَّى عِنْدَمَا يُقَابَلُ إِحْسَانُهُ بِالإِسَاءَةِ، ويَتَأَلَّمُ عِنْدَمَا تَتَعَرَّضُ جُهُودُهُ لِلتَّخْرِيبِ، ولَكِنْ يَجِبُ أَلاَّ يُثْنِيهِ ذَلِكَ عَنْ مُواصَلَةِ الجُهُودِ، بَلْ يَستَمِرُّ عَلَيْهَا مُتَوَكِّلاً عَلَى الخَالِقِ المَعبُودِ، وَيَجِبُ أَلاَّ يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى الحِقْدِ عَلَى الشَّانِئِينَ، أَوِ الانْتِقَامِ مِنَ الحَاسِدِينَ، أَوِ الكَفِّ عَنْ بَذْلِ الخَيْرِ لِلْمُحتَاجِينَ، لأَنَّهُ يَفْعَلُ الخَيْرَ لِيَنْشُرَهُ، ويَعبُدُ اللهَ بِذَلِكَ لِيَأْجُرَهُ، وَأَمَّا النَّاسُ فَيُعَامِلُهُمْ بِالخُلُقِ الحَسَنِ، يَحْلُمُ عَنْ مُسِيئِهِمْ، ويَعفُو عَنْ مُخْطِئِهِمْ، وَيَستَمِرُّ فِي أَدَاءِ مَا عَلَيْهِ حَتَّى يَبْلُغَ هَدَفَهُ أَو تَأْتِيَهُ الوَفَاةُ، قَالَ تَعالَى:((وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)). أيّها المسلمون. فَيَا مَنْ ابتُلِيَ بِالمَصَائِبِ، وَأَصَابَتْهُ الشَّدَائِدُ؛ ثِقْ بِرَبِّكَ وَأَيقِنْ بِمَولاَكَ، وَاعلَمْ أَنَّ خَلاَصَكَ بِيَدِ اللهِ؛ فَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ بِالسُّؤَالِ، وَارْجُ مِنْهُ النَّوَالَ، وَاسأَلْهُ كَشْفَ البَلاَءِ، مُخْلِصًا إِلَيْهِ اللُّجُوءَ وَالدُّعَاءَ، وَلْيَكُنْ لَكَ فِي حَادِثَةِ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ دَرْسٌ يَفْتَحُ عَيْنَيْكَ عَلَى حَقِيقَةٍ رُبَّمَا تَكُونُ قَدْ غَفَلْتَ عَنْهَا، أَو أَنْسَتْكَ المَصَاعِبُ عِلْمَهَا، وَلْيَكُنِ الصَّبْرُ لَكَ صَاحِبًا، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ امتِحَانٍ وابتِلاءٍ، أَمَا سَمِعْتَ قَولَ اللهِ تَعَالَى:((أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)).

أيّها المسلمون. إِنَّ حَيَاةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَلِيئَةٌ بِالمَوَاقِفِ العَظِيمَةِ، وغَنِيَّةٌ بِالمَشَاهِدِ الجَسِيمَةِ، التِي تُرشِدُ العَاقِلَ إِلَى المَسَالِكِ القَوِيمَةِ، مَواقِفُ تَشِعُّ بِالطُّهْرِ والنَّقَاءِ، وتَحكِي أَرْوَعَ صُوَرِ الصّدْقِ بِلاَ افتِرَاءٍ، قَالَ تَعَالَى:((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ))، فَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مواقِفَ عَابِرَةٍ، ولاَ حِكَايَاتٍ مُتَداولَةٍ

سَائِرَةٍ، لِذَا وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَقِفَ مَعَها وَقْفَةَ تَأَمُّلٍ ودِرَاسَةٍ، ونَنظُرَ إِلَيْها نَظْرَةَ فِكْرٍ واعتِبَارٍ، ونَتَأَمَّلَ فِيها تَأَمُّلَ العُقَلاَءِ، نَدْرُسُها بِفِكْرٍ مُستَنِيرٍ، لاَ يَقِفُ عِنْدَ حَدِّ ذِكْرِ الأَخْبَارِ، وَسَرْدِ القَصَصِ والمَواقِفِ، بَلْ دِرَاسَةً تَأْخُذُ مِنَ المَوقِفِ عِبْرَتَهُ، ومِنَ الحَدَثِ مَغْزَاهُ وعِظَتَهُ، ومِنَ الوَاقِعِ هَدَفَهُ وحِكْمَتَهُ، دِرَاسَةً يُشْرِقُ مِنْها ضِيَاءٌ يُنِيرُ لَيْلَ الضَّلاَلَةِ، ويَتَفتَّقُ مِنْها عِلْمٌ يَمْحُو كَدَرَ الجَهَالَةِ، تَضَعُ البَلْسَمَ الشَّافِي عَلَى الدَّاءِ، وتَصنَعُ لِجَمِيعِ الأَسقَامِ أَنْجَعَ دَواءٍ، لِتُؤَسِّسَ بِنَاءً فِكْرِيًّاً لاَ تَتَزَعزَعُ أَركَانُهُ، ولاَ يَتَصَدَّعُ أَمَامَ العَوَادِي بُنْيَانُهُ، لأَنَّها دِرَاسَةٌ تَتَنَاولُ سِيْرَةَ مَنْ أَرْسَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَهَذَا أَمْرُ اللهِ لَنَا فِي كِتَابِهِ، وتَوجِيهُ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَدِيعِ خِطَابِهِ، قَالَ تَعالَى:((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً))، فَاتَّقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ، واعتَبِروا بِذِكْرَى سِيرَتِهِ العَطِرَةِ صلى الله عليه وسلم، واهتَدُوا بِهَدْيِهِ؛ تُفْلِحُوا فِي دُنْيَاكُم وآخِرَتِكُم. واعلَمُوا أَنَّ مِنْ عِبَرِ الإِسرَاءِ والمِعْرَاجِ أَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ واعتَمَدَ عَلَيه، وفَوَّضَ كُلَّ الأُمُورِ إليه؛ كَانَ لَه مِنَ اللهِ العَونُ، والحِفْظُ والصَّونُ. وأَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْمُرَ حَاضِرَهُ ويُؤمِّنَ مَصِيرَهُ؛ فَعَلَيهِ أَنْ يَدْرُسَ الأَحدَاثَ بِتَمَعُّنٍ ونُورِ بَصِيرَةٍ. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممّن اعتبر وادّكر بهذه السيرة. فتاب إلى ربّه واستغفره من كلّ صغيرة وكبيرة. كما نسأله سبحانه بمنّه وكرمه أن يفتح على المسلمين فتحا من عنده، وأن يردّهم إلى دينهم ردّا جميلا، وأن يجمع كلمتهم على الحقّ والهدى، كما نسأل المولى عزّ وجلّ أن يعيننا على السير على خطاه صلى الله عليه وسلم، اللهم أحينا على محبّته. وثبّتنا على سنّته. وأمتنا على ملّته. واحشرنا في زمرته. وأكرمنا بشفاعته. صلى الله عليه وسلم، اللهم وأنِلنا شرف صحبته في علّيين، مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيئين والصّدّيقين والشهداء الصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ